كلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس

السلسلة السادسة : الفلسفة والآداب مجلد عدد 21

التفكير البلاغي عند العرب
أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس

(مشروع قراءة)

Dia igui tarandi
Mulu

تأليف
حمّادي صمّود
أستاذ محاضر

منشورات الجامعة التونسية

طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

1981

إلى وَالِـــديّ

وإلَى رُوح صهـري «سي بوبكر» الّذي غادرنَا وأنا أضع اللّمسات الأخيرة في هذا العمـل .

هذا الكتاب بحث أعده صاحبه تحت اشراف الأستاذ الدكتور عبد القـادر المهيري لنيل دكتورا الدولـة في الآداب وقد تمت مناقشته بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة التونسية يـوم 25 افـريل 1980 .

فلكل من ساهم في ابرازه على ما هو عليه جزيل الشكر والثناء

« أمّـا بعد فإنّي أنا ، أيضا ، أنتهز هذه الفرصة لأقرّر أنّ الدّراسات البلاغيّة لا تزال تحيا في فلك المنهج القديم : علومه ومسائله ، وأنّ هذا العلم في حاجة ملحّة إلى وضع جديد أشار به السّابقون وأجملته أنَا في غيـر هـذا المـكان ورجـوت أن ينهض به هذا الرّعيل الجديد » .

أحمد الشّايب .

* * *

« De toutes les disciplines antiques, la rhétorique est celle qui mérite le mieux le nom de science ».

P. GUIRAUD

المقدمـــة

استأثرت البلاغة بنصيب وافر من مجهـود المهتمّين بالتّراث العربي فمنذ القرن الماضي بدأت حركة تأليف نشيطة تَسَارع نسقها شيئا فشيئا حتى أصْبَحَ من العسير الإلمام بكلّ ما نشر في الموضوع بل إنّ المنشور جدير بأنْ يُجْمع ويُقيّم في بحث مستقـلّ .

وقد مسّت هذه المؤلفات معظم جوانب البلاغة ، فخُصّص قسم منها لتبيّن خطوطها الرّئيسية ومسائلها الـكبرى كالتاريخ لبعض مراحلها ، والاهتمام بأبرز مواضيعها ودراسة مصطلحها وعلاقتها بالتّراث الأجنبي ، وخُصّص قسم آخر للتعريف بأعْلامها والـكشف عن مُساهمتهم في بلورة مسائلها وضبط مقاييسها ؛ كما لم يُغْفل الدّارسون صلتها بأوجه النشاط الفكري الأخرى كالتّفسير والنّحو والإعجاز وحتّى الفلسفة السّياسيّة (1) .

ولا شكّ في أنّ هذه المؤلفات أسْهمت إسْهاما كبيرًا في تعميق معـرفتنا بالعلم وأعلامه ولَفْتِ النّظر إلى المجهودات الحاسمة فيه ومدّ الباحثين بأدوات عمل قيّمة .

---

(1) انظر مثلا :

Butterworth (Charles) : *rhetoric and Islamic political philosophy,* in, I.J.M.E.S., III/2, avril 1972, pp. 87-98.

وقد صاحبت هذه الجهود في التأليف جهود أخرى ، لا تقلّ عنها قيمة تمثلت في نشر عدد كبير من النصوص وإعادة نشر عدد كبير آخر نَشْرًا علميا يوفر على الباحث كثيرا من العناء والوقت .

إلاّ أن هذه الجهود لا تخلو ، على أهمّيتها ، من النّقص ، فالآثار الّتي تروم الإلمام بمختلف مراحل البلاغة نشأةً وتطورًا واكتمالا قليلةٌ ، وما اتّجه منها هذه الوجهة باشر المسألة من زاوية تاريخية – حَدَثِيّة أضعفت جانبَ التّأليف والاستنتاج ، كما أنّها لم تَعْتَنِ عنايةً كافية بالأسس التي يقوم عليها التفكير في جماليّة اللّغة عند العرب ، فجاء جلّها تاريخا للتأليف البلاغي لا للبلاغة ولا يخفى الفرق بين الوجْهَتين . ومن ثمّ تشابهت هذه المؤلفات في هيكلها العامّ وحتّى في مواقف أصحابها من بعض المسائل الجزئية ، فتراها تعيد النّصوص نفسها وتوظّفها بنفس الكيفية ، وهي في كل ذلك تُعْرِضُ عن استكناه مخزونها الفكري والأدبي فتبقى صامتة مُغْلقة على أسس النّظرية الأدبية .

لذلك رأينا أنْ نهتمّ ، في عملنا ، بالبعد التّاريخي ، محاولين ، قدر الإمكان ، المزاوجة بين التّحليل والتّأليف والتّركيز على المُنْعَرِجات الحاسمة في تطور العلم وَبيان التّرابطات القائمة بين مختلف حلقاته .

ثمّ إنّ هذه المؤلفات ، على كثرتها وتنوعها ، لم تتوصل ، في رأينا ، إلى إقْحام البلاغة في حَقْل العلوم الأدبية ولم تستطع أن تُقْنِع بفعاليتها في ممارسة الأدب ونقده فتعودَ إليها مكانتها السّالفة باعتبارها نظرية في فنّ القول تولّدت عن ممارسة النص من جهة بنيته اللّغوية . لذلك تعالت أصوات تدعو إلى تجديد النظرة إلى قضايا البلاغة في إطار تجديد النظرة إلى الأدب . ولعلّ أوضح تعبير عن ضرورة تغيير منهج الدراسة البلاغية قول أحمد الشّايب : « أمّا بعد فإنّي أنا ، أيضا ، أنتهز هذه الفرصة لأقرر أنّ الدراسات البلاغية لا تزال تحيا في فلك المنهج القديم : علومه ومسائله ، وأنّ هذا العلم في

حاجة ملحّة إلى وضع جديد أشار به السّابقون وأجْمَلته أنا في غير هذا المكان ، ورجوت أن ينهض به هذا الرّعيل الجديد » (1) .

وسَبَبُ هذا القصور يعود ، من وجهة نظرنا ، إلى غياب جدلية « التراث » و « الحداثة » في هذه المؤلفات وتصدّيها لدراسة التّفكير البلاغي ، في الغالب ، من منظور أحاديّ البُعْدِ يقع على هامش النقاش الجوهري المطروح ، اليوم ، في أغلب التيارات النقدية الحديثة والدّائر حول إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجية الجديدة ولا سيّما مكتسبات اللّسانيات أو عدم إمكانية ذلك ، وبالتّالي الإقرار بموت البلاغة وقيام « الأسلوبية » بديلا عَنْها .

ولذلك حرصنا ، في هذه المحاولة ، على مباشرة التّراث من منطق التّفاعل بينه وبين الحداثة قصْدَ فهمه في ذاته واستجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتضمنها ، ثمّ لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها ، اليوم ، للمساهمة بها في تغذية النّقاش القائم ، حولنا ، في هذه القضايا .

ولم تَغِبْ عنّا ، طيلةَ هذا العمل ، الصّعوباتُ بل المخاطر الحافة بهذا التوجّه لأنّ كلّ عمل ، من هذا القبيل ، مُهَدّد بالوقوع في ضَرْبٍ من « الاستيلاب » (2) الثقافي و « السّلفية » الفكريّة الجديدة إنْ لَمْ نُوفّق إلى استخدام أجهزتنا المفهوميّة استخداما يحترم خصائص التّراث والسّياق التّاريخي الذي يتنزل فيه والأسس المعرفية « الابستيمولوجية » القائم عليها لا سيّما أن المفاهيم الّتي نَتَوسّلُ بها مفاهيم شبّت في منابت أخرى وتولدت عن تيارات فكرية وايديولوجية ورؤية للعالم تختلف عمّا هو موجود عندنا

(1) وردت هذه الفقرة في مقدمته على تحقيق حفني محمد شرف لكتاب ابن أبي الاصبع **بديع القرآن** وقد نشر بالقاهرة سنة 1957 ، والمؤلف يشير بقوله « وأجملته أنا في غير هذا المكان إلى مؤلفه **الأسلوب** وقد طبع أول مرة سنة 1939 . وهي أول محاولة في اللسان العربي للتقريب بين مسائل دراسة الأسلوب كما بدأت في أوروبا وقضايا البلاغة العربية . وقد دافع في هذا الكتاب بكثير من الحماس عن أهمية الصياغة والشكل في الظاهرة الأدبية

(2) Aliénation